الزراعة شأنهم في ذلك شأن الفلاحين . ويتحدث د. كنعان عن ملامح الحياة اليومية لهؤلاء الناس فيقول انهم يعيشون حياة صعبة ويقاسون من الحاجة والفقر المدقع ، ويعتمد مجتمعهم على سيطرة الرجل . ويتم زواج البنت عندهم على رغبة وليها ودون استشارتها ولا تحصل على شيء من المهر . وقد يمنحها والدها هدية وهي عبارة عن بعض الحيوانات أو قطعة من الارض . ويشيع بين الليائنة زواج البدل بحيث يزوج الواحد منهم أخته أو قريبته لشخص ويتزوج هو أخت ذلك الشخص او قريبته دون وجود مهر . ويندر أن يتم الزواج بالخطف ، وفي هذه الحال يسمون الفتاة التي تهرب مع حبيبها « طموح » . وهناك عدد ضئيل من بنات المشايخ لعبن دورا كبيرا في حياة القبيلة وفي هذه الحالة يسمى الشيخ بكنية تعود لتلك البنت . وغالبا ما يقضي الرجال وقتهم في كسل دائم وثرثرة متصلة .

ويعتبر الليائنة الاولياء مخلوقات ذات قوة خارقة ودورهم هـو مساعدة الناس عند الحاجة . ولذلك فهم يطلبون منهم العون أكثر مما يطلبونه من الله . ويقول د. كنعان انهم قليلو المعرفة بالدين فقد سأل هو شخصيا خمسة منهم أن يتلوا سورة الفاتحة ولكنهم لم يكونوا ليعرفوا تلاوتها . ويصدق هذا القول علـى البدو المقيمين في النقب واطراف سيناء فمعرفتهم بالدين جد ضئيلة ان لم تكن أحيانا معدومة .

ولم يجد د. كنعان عند هؤلاء البدو أي ممارسات أو طقوس في مزار أو كهف أو ضريح لولي . ولكنه لاحظ انهم يقدسون الموتى مـن الاشخاص ذوي الدور الكبير في تاريخ العشيرة اثناء الحياة . ويؤمنون بالجن ويصفونه بانه يشبـه الغول كما هو ماثل في الحكايات الشعبية الفلسطينية .

منهج البحث عند توفيق كنعان

يمكن القول ان دراسة توفيق كنعان للفولكلور الفلسطيني هي دراسة وصفية . وهو يعتمد على تناول زاوية معينة بحيث يورد كل التفاصيل المتعلقة بها والتي يبدو انه جمع الكثير منها بطريق الاستجواب الشخصي . اما الجزء الآخر فقد اعتمد فيه على العمل المكتبي . ويبدو انه رجع الى العديد من المراجع الاجنبية والتي حاول أن يصحح ما جاء فيها على ضوء معرفته الاصيلة بالحياة الشعبية المحلية .

وقليلا ما يحاول د. كنعان أن يربط بين المادة التي يجمعها وبين مثيلاتها سواء أكان ذلك في بيئات أخرى ام البيئة الفلسطينية القديمة . وهو ان حاول ذلك فانه يقارن مع عهد التوراة أو مع ما جاء في القرآن الكريم . الا ان د. كنعان يكتب وقد اتضح في ذهنه المنهج الوظيفي بحيث يبذل جهدا طيبا في تفسير المادة التي يتحدث عنها من خلال ابراز وظيفتها في الحياة الشعبية ودورها في توجيه أفكار الناس وتكوين مفهوم معين مرتبط بممارسات معينة متفق عليها لدى الوسط الشعبي . ولذلك وجدنا انه القى ثقله الى جانب دراسة المعتقدات الشعبية لعلمه الاكيد أن هذه المادة ذات صلة بالواقع المعاش للناس فهي تؤثر فيه وتوجهه وتحكم مسار الحياة اليومية .

ولم ينس د. كنعان أنه يكتب عن تراث بلد مهدد بأخطار التذويب والابتلاع ، ولذلك نراه يربط بين المادة التي يجمعها وبين الارض ، ويخلق الصلة بينهما بحيث يمكن القول ان هؤلاء الناس — اهل فلسطين — هم أصحاب هذه الافكار المرتبطة بهذه الارض والتي وجدت الصلة عبر هذا الحشد الجغرافي العظيم مـن المزارات والاضرحة والكهوف والينابيع والآبار والاشجار ... الخ .

وبعد ، فان اعمال د. كنعان لهي اشبه بعمل موسوعي يحتاج الى من يعيد تنظيمه ويضيف اليه لتظهر « موسوعة الفولكلـور الفلسطيني » التي تبـرز وجه الشعب الفلسطيني صاحب الارض العربية الفلسطينية ومبدع تراثها وثقافتها الاصيلة .